شروط صلاحية الفعل التواصلي
بين النظريات الغربية والبلاغيين العرب القدامى

د. أحمد صالح غازي
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة صنعاء

الملخص:

يعرض هذا البحث قضية عميقة تمتد جذورها إلى مراحل الوجود الإنساني الأولى حيث يعمل على الكشف عن الشروط اللازمة لصلاحية الفعل التواصلي، وهي: (المعقولية–الصحة) و(الحقيقة–الصدق) و(المعيارية–السلامة) و(المصداقية–الدقة)، بحسب رؤية التواصليين الغربيين المعاصرين وفي مقدمتهم يورغن هابرماس، وكذلك بحسب نماذج مما تضمنته مقولات البلاغيين العرب القدامى التي نقلها إلينا الجاحظ وأوائل علماء البلاغة حتى القرن الخامس الهجري، وقد انقسم البحث إلى تمهيد ومبحثين، تناول الأول منهما في مطالبه الثلاثة: عملية التخاطب عند سوسير وعملية الاتصال ياكوبسون وعملية التواصل عند هابرماس، ثم أسس عملية التواصل، ثم شروط الصلاحية عند التواصليين، وتناول المبحث الثاني شروط الصلاحية عند قدماء البلاغيين العرب، في مطلبين تضمنا: نماذج من مقولات البلاغيين العرب القدامى حول البيان والتَّبَيُّن من خلال: معيار الصدق والكذب، ومعيار المناسبة ومعيار الموافقة والاتباع، بحيث وصل البحث إلى وجود جوانب كثيرة من الاتفاق بين الفريقين في الشروط المتناولة، وكذلك إلى أن مقدار الاختلاف بينهما عائد إلى اختلاف في المنطلقات والأهداف، والله الموفق.

Abstract:

This research discusses a very important rhetorical issue that dates back to the ancient times of communication which is ' the validity conditions of communication'. According to Habermas, among other Western Communicators and also according to some excerpts of the old Arab Rhetoricians' speech (as stated by Al-Jahidh, and others), the validity conditions are identified as Rationality, Truth, Standardization and Accuracy .

This research deals with two main points. The first point focuses mainly on the different communication processes that are discussed by Saussure and Jackobson from one side, and that of Habermas from the other side. It also discusses the principles of the communication process and its validity conditions from the Western Communicators' point of view. The second point of this research aims at discussing the communication validity conditions from the old Arab Rhetoricians' point of view.

The research concludes that both, the old Arab Rhetoricians and the Western Communicators have come up with somehow similar communication validity conditions. However, the slight difference between the two points of views is attributed to the difference in the strategies and objectives of their studies.

المقدمة

تمثل (المعقولية–الصحة) و(الحقيقة–الصدق) و(المعيارية–السلامة) و(المصداقية–الدقة)، شروط صلاحية الفعل التواصلي عند التواصليين الغربيين المعاصرين وفي مقدمتهم يورغن هابرماس، وهي شروط تقترب إلى حد ما من بعض ما اعتمده البلاغيون العرب القدامى أساسا ترتكز عليه بلاغة المتكلم والكلام، وما أوجبوا أن تتم عملية التواصل اللغوي عبره، من شروط يكتسب بها التواصل جديته، ومن خلالها تسري فيه الروح وتدب فيه الحياة؛ ولهذا نجد أصحاب نظرية الفعل التواصلي من علماء الاجتماع كهابرماس ومن نحا نحوه يُلِحُّون على ضرورة تَحقُّقِها في عملية التواصل، وضرورة التزام طرفي التواصل بها، وإلَّا فقدت عملية التواصل روحها، وانهار بناؤها.

سبب اختيار الموضوع:

لفت نظري تقارب ما اشترطه التواصليون الغربيون أواخر القرن الماضي – من شروط صلاحية الفعل التواصلي – مع ما هو مبثوث في كتب البلاغة العربية من نقولات عن البلاغيين العرب القدامى؛ فعقدت العزم على:

أ– تلمس تلك الشروط لدى الفريقين.

ب–إبراز نماذج مما تحمله من اشتراطاتهم المتعلقة بصلاحية الفعل التواصلي.

ت–فتح المجال بعرض هذه (النماذج) لعلها تمثل نواة لعمل لاحق – إن شاء الله – يجمع شتاتها، ويحصى دقائقها ويقيد شواردها، ويظهر غرائبها، ويضعها في مكانها اللائق بها، ويوظفها في مسيرة الدرس البلاغي العربي والتواصلي الإنساني بشكل عام.

مشكلة البحث:

يحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١– ما هي شروط صلاحية الفعل التواصلي عند الفريقين؟

٢– ما مدى توافق واختلاف شروط الصلاحية لدى الفريقين؟

٣– ما العوامل التي أثرت في اتفاق الفريقين واختلافهما في ما اشترطاه؟

أهمية هذا البحث:

يكتسب هذا البحث أهميته من أنه يعمل على الكشف عن:

١– شروط صلاحية الفعل التواصلي عند البلاغيين العرب القدامى مقارنة بها عند التواصليين.

٢– نقاط التقاء وافتراق رؤى البلاغيين العرب القدامى والتواصليين فيما يخص شروط الصلاحية.

٣– مدى مناسبة شروط كل فريق لأهدافه التواصلية.

٤– إمكان التأصيل لما يَرِد إلينا من نظريات ودراسات ومصطلحات.

٥– إمكان رفد الحاضر بما هو مناسب من معطيات ماضي الدرس البلاغي العربي.

المنهج:

اتُّخِذَتْ المقارنة منهجا للبحث لما يفرضه موضوعه من وجوب عقد المقارنة بين الفريقين، وهما: (البلاغيون العرب القدامى والتواصليون الغربيون المعاصرون) في جانب شروط صلاحية الفعل التواصلي.

خطة السير:

بُنِيتْ خطة السير في هذا البحث على:

١– المقدمة، وهي: ما بين أيدينا.

٢– التمهيد وفيه إضاءة عن العوامل التي أثرت في شروط الصلاحية لدى الفريقين.

٣– المبحث الأول: شروط الصلاحية عند التواصليين، وانقسم إلى ثلاثة مطالب:

أ– المطلب الأول: عملية الاتصال عند سوسير وياكوبسون وهابرماس.

١- الفرع الأول: عملية التخاطب اللغوي عند سوسير.

٢- الفرع الثاني: عملية الاتصال عند ياكوبسون.

٣- الفرع الثالث: عملية التواصل عند هابرماس.

ب-المطلب الثاني: الأسس التواصلية عند التواصليين الغربيين المعاصرين.

ت-المطلب الثالث: شروط الصلاحية عند التواصليين الغربيين المعاصرين.

٤- المبحث الثاني، شروط الصلاحية عند البلاغيين العرب القدامى، وانقسم إلى:

أ- المطلب الأول معيار الصدق والكذب، وانقسم إلى فرعين، هما:

٤- الفرع الأول: المعقولية-الصحة.

٥- الفرع الثاني: الحقيقة-الصدق.

أ- المطلب الثاني معيار المناسبة، وانقسم إلى فرعين:

- لفرع الأول: المعيارية-السلامة.
- الفرع الثاني: المصداقية-الدقة.

الخاتمة: وضمت أهم نتائج وتوصيات البحث.

المصادر والمراجع: تم وضع حواش أسفل كل صفحة ذُكِرَتْ فيها معلومات المصدر كاملة، في أول مرة يرد فيها، على الترتيب الآتي: اسم المصدر، المؤلف، المحقق/المترجم، الجزء/الصفحة، دار النشر، مكانه، رقم الطبعة، تاريخ الطباعة، ونظرا لتغير المواقع والصفحات التي يرد فيها الهامش حين تجهيزها للنشر في المجلات فقد اضطررت لترك كتابة لفظ: (نفسه، المصدر السابق)، ونحوها، في المصادر التي تكرر ذكرها في الموضع نفسه، فأعدت ذكر اسم الكتاب والصفحة فقط، ثم جاءت معلومات المصادر والمراجع كاملة في نهاية البحث على هذا الترتيب.

وختامًا فأرجو أن يكون هذا البحث قد أسهم في الكشف عن إحدى حلقات التواصل بين تراثنا وما تتفتق عنه المعرفة الإنسانية المعاصرة من رؤى وأفكار ونظريات، والله الهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد:

قبل أن نتناول شروط الصلاحية عند البلاغيين العرب القدامى بالنظر إلى ما هي عليه عند التواصليين نتوقف قليلا على نقاط أسهمت في تشكل شروط صلاحية الفعل التواصلي عند الفريقين،

حيث أثر اختلاف منطلقات الفريقين وأهدافهم من دراسة عملية التواصل تأثيرا واضحا فيما وضعه كل منهم من شروط، وكذلك فإن مصطلحات الفريقين قد اختلفت في ذاتها من ناحية، وفيما يدخل في حيزها من جوانب العملية التواصلية من ناحية ثانية، فإن أهداف التواصليين النابعة من منطلقاتهم التي تشكلت تحت تأثير انتماء أغلبهم إلى فئة عانت كثيرا من الاضطهاد، واختصاصهم بحقل الدراسات الاجتماعية الفلسفية، وسعت من آفاق التناول وضمت إلى حيز المصطلح التواصلي عندهم جوانب ليست له عند البلاغيين العرب، وبيانه كما يلي:

أولا – المنطلقات:

ينطلق الدرس التواصلي في أساسه من خلال مجموعة من الدراسات التي تنتمي إلى الحقل الاجتماعي؛ بدأت بذرتها من هذه الناحية في ما أرساه الجيل الأول[١] من رواد مدرسة فرانكفورت (النظرية النقدية)، التي انطلقت عام: ١٩٢٣م، في إطار معهد الأبحاث الاجتماعية، وهو معهد مستقل عن الجهات الحكومية[٢]، ضم كوكبة من الباحثين ينتمي أغلبهم إلى عائلات يهودية، في مرحلة بلغ فيها اضطهاد اليهود ذروته في أوروبا بصورة عامة وفي ألمانيا بشكل خاص، وهو ما ظهر تأثيره في صيغة التواصل التفاعلية التشاركية الديموقراطية الحرة التي اقترحوها بالتساوي والتكافؤ والتوافق بين كل أطراف الفعل التواصلي[٣].

(١) هم كل من: ماكس هور كهايمر، فريدريك بولوك، فرانز نيومان، ثيودور أدورنو، هربرت ماركوز، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، د. كمال بو منير: ١٠، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

(٢) النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت، آلن هاو، ترجمة/ ثائر ديب: ٣٤، المركز القومي للترجمة، القاهرة مصر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

(٣) مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، يورغين هابرماس، ترجمة/ د. جورج كتُّوره: ٤٥، المكتبة الشرقية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٦م.

وكذلك فإن انطلاقهم تحت مظلة الدرس السيميائي[١]، وفي مرحلة هيمنة الدرس اللساني بشكل عام[٢]، جعلهم يسعون إلى إنشاء تداولية شاملة كلية[٣]، وتحت تأثير مركزية اللغة دعوا إلى دراسة كل الأنشطة الإنسانية في إطارها؛ باعتبارها الوسيط التواصلي الأساس[٤]، الذي تحفظ فيه كل الخبرات والمعارف والثقافات والعلوم الإنسانية وتظهر من خلاله، وبهذا فإنهم خرجوا بالنشاط الإنساني من هيمنة الفلسفة إلى فلسفة اللغة.

وبالمقابل فإن البحث عن تحقيق الصورة الأعلى خطابيا وإقناعيا وجماليا مثل منطلقا رئيسا عند البلاغيين العرب القدامى، ورفد هذا المنطلق التحدي الإعجازي، الذي جاء به – بعد ذلك – النص القرآني، فجاءت نصوص الأوائل مشبعة بتأثيرات هذا المنطلق.

ثانيا – الأهداف:

عمل التواصليون الغربيون المعاصرون – تحت تأثير اختصاصهم بالبحث الاجتماعي – على تحليل اللغة ودراستها لتحقيق أهدافهم الاجتماعية، بعد أن تحولوا – بحسب الدراسات اللسانية التي منحت اللغة سلطة مركزية – إلى إخضاع الدراسات الاجتماعية لفلسفة اللغة، ومن هنا فإن هدفهم من دراسة عملية التواصل أعم وأوسع من أن ينحصر في تحليل مكونات اللغة وبنيتها، والكشف عن مواطن جمالها، وبلاغتها، وإبلاغيتها، إلى تحقيق ما سماه هابرماس: التوافق والإجماع، وهو هدف – وإن تجاوز حدود التناول اللغوي – مرجو تحققه عبر التواصل اللغوي عادة، وقد راعى ذلك قدماء البلاغيين العرب فيما تضمنته مقولاتهم المبثوثة في كتب الأدب والنقد والبلاغة وغيرها.

---

(١) السيميولوجيا والتواصل، إيريك بويسنس، ترجمة/ جواد بنيس: ١٤، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، الطبعة الثانية، سنة: ٢٠١٧م، إذ يعرف بويسنس السميولوجيا بأنها: "دراسة الإجراءات التواصلية، أي: الوسائل المستعملة للتأثير في الآخر"، السيميولوجيا والتواصل: ٢١.

(٢) اللسانيات وتحليل النصوص، د. رابح بوحوش: ٩، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٧م.

(٣) اللغة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللغة، تأليف مشترك، إعداد وتقديم/ مخلوف سيد أحمد: ٣٠٤، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م، البحث بعنوان: (الفاعلية التواصلية عند هابرماس)، د. غالي حساين دواجي.

(٤) الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود:١٠٤، منشأة المعارف جلال حزى وشركاه، الاسكندرية مصر، ط١، سنة: ٢٠٠٢م.

وتركزت أهداف البلاغيين العرب القدامى في: تحقيق البيان، والفهم والإفهام، وهذه أهداف تواصلية بصورة عامة، ومثَّل السعي للكشف عن أسرار الإعجاز من ناحية، وتحقيق أعلى المراتب البلاغية والجمالية من ناحية ثانية، هدفين مركزيين لدى قدماء البلاغيين العرب، كان لهما أثرهما فيما اشترطوه من شروط صلاحية الفعل التواصلي، ورغم كون هذين الشرطين غير مركزيين لدى التواصليين فإنهم يراعونهما؛ إذ هما داخلان تحت ما اشترطوه من المعقولية.

ومع كون الإفهام هدفا رئيسا، فإنه ليس الوظيفة الوحيدة التي يجب أن يؤديها الكلام، ذلك "أن الخطب الرايعة والأشعار الرايقة ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأن الردي من الألفاظ يقوم مقام الجيدة في الإفهام"(١).

لقد بنى البلاغيون العرب القدامى رؤيتهم حول شروط صلاحية الفعل التواصلي على أساس من أهدافهم التواصلية الخاصة بهم، مبينين أن مدار الأمر وارتكازه على أهداف تلامس القصدية بما هو أعم من قصدية سيرل(٢)؛ حيث يتشارك فيها عندهم طرفا الفعل التواصلي، وبحسب مواقعهما التي يتناوبانها أثناء التواصل، قال الجاحظ: "وإنما مدار الأمور والغاية التي يُجرى إليها: الفَهم ثم الإفهام، والطلب ثم التثبت"(٣).

ثالثا – المصطلحات:

نتج عن الخلفية الاجتماعية للدراسات التواصلية الغربية المعاصرة أن جاءت مصطلحات التواصليين متضمنة الجوانب الاجتماعية على نحو ظاهر، بحيث تخالف استقلالية الدرس اللغوي وتفارق ما هي عليه من حضور عند البلاغيين العرب القدامى، فالمعقولية – مثلا – عند التواصليين تتجاوز حدود الصحة والسلامة اللغوية لتشمل الطرح المضموني، وتغدو صفة له، بمعنى أن ما يطرحه كل طرف من الأطراف المشتركة في الفعل التواصلي يجب أن يتسم بالمعقولية بالنسبة إلى

(١) الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق/ د. مفيد قميحة: ٧٣، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨١م.

(٢) خص القصدية بدراسة تامة مستقلة في كتاب بعنوان: القصدية، بحث في فلسفة العقل، جون سيرل، ترجمة/ أحمد الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط١، سنة: ٢٠٠٩م.

(٣) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون: ١/ ٣٩، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، الطبعة السابعة، سنة: ١٩٩٨م.

ما تطرحه الأطراف الأخرى، وما يمكنهم القبول به، وهذا الجانب ظاهر البعد عن حقل التواصل اللغوي، وكذلك فإن مصطلح المصداقية عندهم لا يتعلق بما أسهب في مناقشته البلاغيون العرب من صدق الخبر وكذبه، بل جعلوه قريبا من مدى جدية الأطراف المتشاركة ودقتهم في التعبير عن مقاصدهم، وتقاس على هذا مفاهيم بقية المصطلحات التي وضعها التواصليون، فيما يخص شروط صلاحية الفعل التواصلي.

المبحث الأول

شروط الصلاحية عند التواصليين

يوقفنا هذا المبحث على شروط الصلاحية بعد عرض موجز للأسس التي ارتكزت عليها عملية التواصل، وكذلك بعد الكشف عن أهم الفروق بين عملية التخاطب والاتصال عند: فرديناند دي سوسير[١] وروماان ياكوبسون[٢] من ناحية، وعملية التواصل عند يورغن هابرماس[٣] من ناحية ثانية، على ما سيتم إيضاحه فيما يلي:

المطلب الأول

عملية الاتصال اللغوي عند دي سوسير وروماان ياكوبسون وهابرماس

تطورت النظرة إلى عملية الاتصال اللغوي من مطلع القرن العشرين إلى مطلع القرن الواحد والعشرين تطورا كبيرا، وحققت ذلك عبر ثلاث محطات رئيسة، أولاها: خطاطة سوسير عن عملية التخاطب اللغوي، والثانية خطاطة: الرسالة اللغوية لروماان ياكوبسون، والثالثة: تصور هابرماس عن عملية التواصل، وإلى هذه الثلاث المحطات انقسمت فروع هذا المطلب.

---

(١) هو أول رواد اللسانيات الحديثة، ولد في جنيف، سنة: ١٨٥٧م، وحصل على الدكتوراه في لايبزك، سنة: ١٨٨٠م، وتوفي سنة: ١٩١٣م، وكانت أفكاره التي بثها في محاضراته في علم اللغة نقطة التحول في الدرس اللساني بشكل عام، علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة/ د. يوئيل يوسف عزيز: ٣، دار آفاق عربية، بغداد العراق، ط١، سنة: ١٩٨٥م.

(٢) عالم شكلاني لساني بنيوي، ولد عام: ١٨٩٦م، وأسس مع زملائه عام: ١٩١٥م حلقة موسكو اللسانية، وفي عام: ١٩٢٠م انتقل للعيش في براغ، وشارك في حلقة براغ اللسانية التي تأسست عام: ١٩٢٦م، ورأسها بعد ذلك حتى سنة: ١٩٣٨م، وتحت ضغط الصراعات الأوروبية في تلك المرحلة تعددت هجراته، إلى أن استقر سنة: ١٩٤١م بأمريكا، اللسانيات ونظرية التواصل – روماان ياكوبسون نموذجا، د. عبد القادر الغزالي: ١٣ : ١٧، دار الحوار، اللاذقية سوريا، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.

(٣) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، ولد عام: ١٩٢٩م، وشارك في مراهقته إجباريا في الحرب العالمية الثانية عام:١٩٤٥م، وكان أحد رواد الجيل الثاني بمعهد البحث الاجتماعي بفرانكفورت، وتأثر بأفكار أستاذيه: ثيودور أدورنو، وماكس هور كهايمر، من رواد الجيل الأول، وحصل على الدكتوراه عام: ١٩٥٤م، وحصل على الأستاذية عام: ١٩٦١م، كتاب يورجن هابرماس، مقدمة قصيرة جدا، جيمس جوردن فينليسون، ترجمة/ أحمد محمد الروبي: ١٠، وما بعدها، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة مصر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٥م.

الفرع الأول

عملية التخاطب اللغوي عند دي سوسير

مثلت طروحات فرديناند دي سوسير انطلاقة جديدة للدراسات اللسانية، وقد مثلت رؤيته حول عملية الاتصال اللغوي بين طرفين أساسا للدراسات التواصلية، فإنه يتحدث عن عملية اتصال لغوي ويعرضها الشكل الذي رسمها عليه على شكل تواصلي بصورة أولية، يتجاوز حدود الاتصال، ويقترب بها من التواصل، حيث رسمها على بالصورة الآتية[1]:

ويمكن توضيح العملية التخاطبية التي رسمها الشكل السابق لسوسير بالشكل الآتي[2]:

(١) علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة/ د. يوئيل يوسف عزيز: ٢٩.

(٢) التواصل: نظريات وتطبيقات، محمد عابد الجابري:٢٣٦، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، علي مولا، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

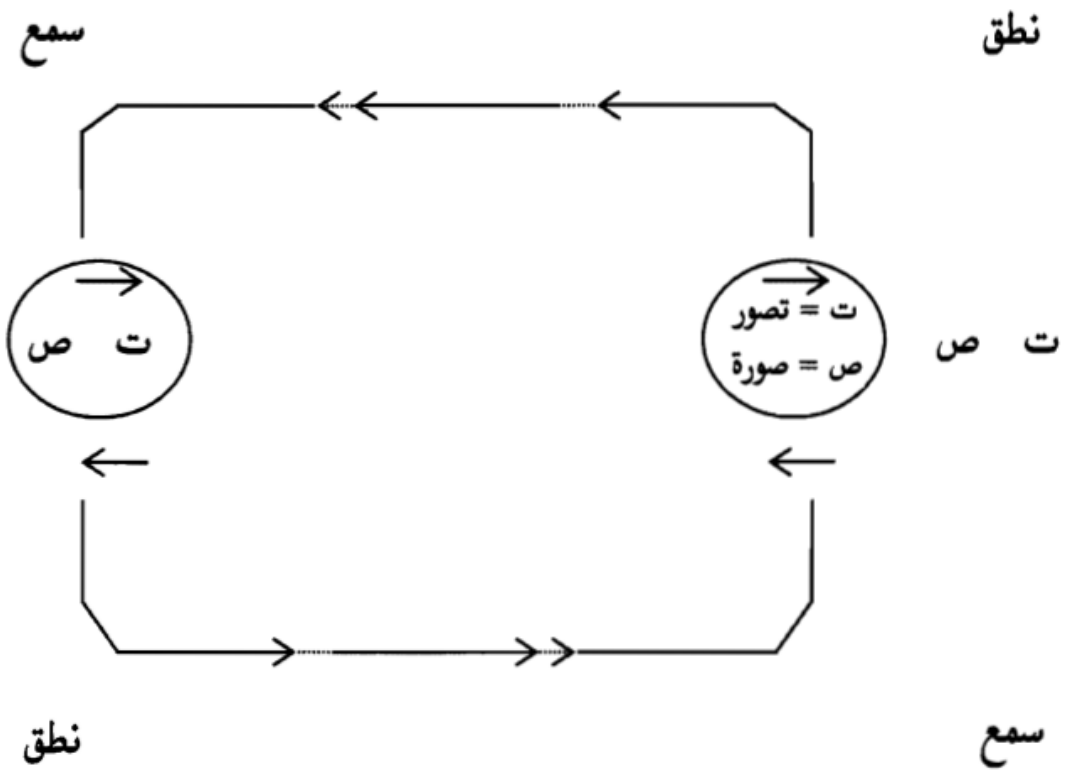

الفرع الثاني

عملية الاتصال اللغوي عند رومان ياكوبسون

أفادت اللسانيات البنيوية في القرن الماضي من مجال هندسة الاتصالات في وضع تصور عملية الاتصال اللغوي، حيث نظر ياكوبسون إلى رسالة التلغراف التي تسير في اتجاه خطي واحد[١]، فرسم لها الشكل الآتي[٢]:

سياق

مرسل رسالة مرسل إليه

(١) كما جاء في مقال حسن مستر: (لا وعي التواصل)، المنشور ضمن كتاب: التواصل: نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث/ مجموعة مؤلفين، بإشراف/ محمد عابد الجابري: ١١.

(٢) قضايا الشعرية، رومان ياكوبسون، ترجمة/ محمد الولي ومبارك حنون: ٢٧، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨٨م.

اتصال

سَنَن

وقد عد بعض الباحثين دراسات الاتصالات وما يرتبط بها في أربعينات القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية بداية انطلاق الدراسات التواصلية[١].

الفرع الثالث

عملية التواصل عند هابرماس

وظف هابرماس ما طرحه سوسير وياكوبسون من بعده عن عملية التخاطب والاتصال وطوره، فانتقل به من عملية الاتصال إلى عملية التواصل؛ الذي يقتضي تشاركا بين الأطراف، ويقتضي كذلك تعددهم، وتبادلهم المواقع، ويستلزم تساويا في المستوى التشاركي والواجبات والحقوق، يقول هابرماس: "وأنا أفهم من جهة ثانية تحت مقولة الفعل التواصلي تفاعلا متوسطا رمزيا، هذا التفاعل يتكون حسب معايير صالحة إلزاميا، تحدد توقعات سلوكات متبادلة، يجب أن تفهم ويعترف بها من قبل ذاتين فاعلتين على أقل تقدير"[٢]، ويمكن رسم عملية التواصل التشاركية عنده – في ضوء خطاطة سوسير السابقة – على النحو الآتي:

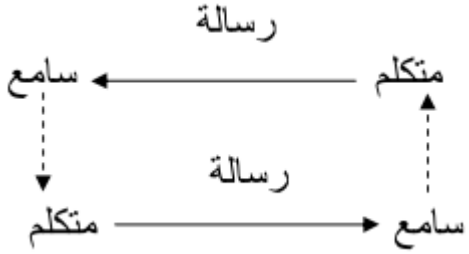

فإن المتكلم يصبح سامعا والسامع متكلما، وهكذا هو الحال في العملية التواصلية، حيث يتفاعل الجميع ويتبادلون المواقع بحرية تامة وتكافؤ.

(١) منهم: الدكتور/ عبد القادر الغزالي، في كتابه: اللسانيات ونظرية التواصل: ٢٣، ومنهم: الدكتور/ عبد الجليل الأزدي، في مقاله: التواصل والتواصل السياسي، المنشور ضمن كتاب: التواصل نظريات وتطبيقات، مجموعة مؤلفين، بإشراف/ د. محمد عابد الجابري: ٢٣١.

(٢) العلم والتقنية كإيديولوجيا، يورغن هابرماس، ترجمة/ حسن صقر: ٥٦، ٥٧، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.

المطلب الثاني

الأسس التواصلية عند التواصليين الغربيين المعاصرين

تشكلت الرؤية التواصلية الغربية المعاصرة – لدى هابرماس والتواصليين – عبر مجموعة من الأسس، التي تتعلق بأركان الفعل التواصلي وعناصره وأطرافه وشروطه، من أهمها:

التشاركية:

أوضح هابرماس في حديثه عن بيرس ونقداته عليه أن التفاعل والتواصل يتم على أساس التشارك والتساوي، وليس الإلحاق والتبعية، ولا التلقي السلبي[١]، وهذا التفاعل الإنساني تميزه اللغة، ويظهر من خلالها، وبواسطتها؛ فهي أداته الأساس، وكون الفعل الإنساني يظهر على شكل بنية لغوية، فكرة أخذها هابرماس من الفيلسوفة الأمريكية/ حنّة آرنت، وأفاد منها في بناء نظرية الفعل التواصلي[٢].

التكافؤ:

بحسب ما جاء في حديث هابرماس عن دلتاي ونقداته عليه فإن "ما هو نوعي في هذا المشترك المترسخ البنية لغويا هو أن فيه يتواصل أفراد امتلكوا فردياتهم، وهم يتفقون على أرضية المشاركة في حالة عامة من النوع الذي يحصل فيه أنهم يتطابقون مع بعضهم البعض يعرفون ويتعرفون بعضهم البعض كذوات متكافئة"[٣].

البينذاتية:

---

(١) المعرفة والمصلحة، يورغن هابرماس، ترجمة/ حسن صقر: ١٦٨، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠١م.

(٢) الإشكالية السياسية للحداثة، من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل، د. علي عبود المحمداوي: ٧٩، ٨٠، منشورات ضفاف، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٥م.

(٣) المعرفة والمصلحة: ١٨٨.

إن الضرورة تقتضي أن يتم الحوار في الفعل التواصلي والاستعراف بين ذاتين، "إذ يتخطى الحوار الحقيقي الذاتانية والرأي الذاتي للمشاركين، فاللوغوس لا يمكن أن يكون ملكك أو ملكي، بل يبقى مشتركا بين ذاتية المتحاورين، ورهينا بالتذاوت"[١].

الحوارية:

فاللغة في نظر هابرماس "حوار بين عقول المتحدثين، تهدف إلى إقامة جسر التفاهم، وبلوغ الإجماع، بصدد القضايا، واللغة هي: جملة قواعد تؤسس للاتصال بين الناس، وليست أصواتا تلقى شذرا مذرا، بل إن كل فعل لغوي يندرج ضمن ألعاب لغوية لها منطقها واستعمالها الخاص[٢]، وهي مرتبطة بأنماط حياة، ...، لذا فإن كلا من: **الصحة والمصداقية والمعيارية والمسؤولية** تهم البعد القيمي للمنطوق، وتقديم البرهان على ما تقول، ...، والاتصال عبر المعنى يسمى تواصلا، ولو خلا الاتصال من المعاني لانتفى القصد والهدف من اتصال الإنسان باللغة والكلام"[٣].

الإنجازية:

لا يبق القول عند التواصليين مجرد تمثيل وبيان للأشياء والموضوعات بل يرتبط القول بالفعل؛ كما هو في مرجعيتهم التداولية عند جون أوستين وتلميذه جون سيرل في نظرية أفعال الكلام[٤]، فـ"غاية العقل التواصلي أن يجنح العقل الكامن فيه إلى التزاوج والتذاوت المؤدي إلى التفاهم، وتداخل الحقائق، فالقول والفعل مرتبطان، وليس القول هنا بمعنى التصوير والتمثيل والبيان، فالتواصل يشير إلى ما يفعله المتكلم بقوله"[٥].

---

(١) النظرية النقدية التواصلية، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، حسن مصدق: ١٢١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٥م.

(٢) نلاحظ ههنا الأخذ المباشر عن فتجنشتاين، صاحب نظرية: الألعاب اللغوية، التي تتلخص في: عقد المشابهة بين لعبة الشطرنج ونظم اللغة، وأنهما لا يختلفان إلا في التطبيق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صالح إسماعيل عبد الحق: ١١٩، دار التنوير، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٩٣م.

(٣) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٢٥.

(٤) الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، الزواوي بغوره: ١٠٦، ١٠٧، دار الطليعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٥م.

(٥) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٢٦.

وكذلك فإن اللغة عنده ليست مجرد: (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[١]، لأنها تشكل بنية عالمنا الذي نعيش فيه، "فنحن منذ الأزل في عالم معيش تشكل اللغة بنيته"[٢]، وعليه فإن "القواعد المتعالية التي تبني العوالم المعيشة يمكن الإمساك بها من خلال تحليل اللغة، وداخل القواعد التي تنظم عمليات التواصل"[٣]، وكل هذا يعني أسبقية اللغة – عند هابرماس ومن نحا نحوه – وأولويتها على العمل[٤].

أخلاقيات النقاش:

إن تحول النظرة إلى اللغة والتعامل معها تواصليا عند هابرماس[٥] على هذا النحو جعل من الضروري إيجاد أخلاقيات للنقاش تهتم بوضع إجراءات "سليمة لقواعد الحوار، تحفظ مناصفة لكل مشارك في حوار حقه في التعبير عن رأيه دون تسلط أو قهر، بمعنى أن نختار ما يناسبنا ونريده في إطار المسالمة والرضا في وجودنا، كما تلزم الإجرائية طرق تداول الخطاب وكيفية التشاور على مضامينه والبرهنة بالحجج على قضاياه"[٦].

المطلب الثالث

شروط الصلاحية

اشترط التواصليون الغربيون المعاصرون مجموعة من الشروط رأوها ضرورية لنجاح الفعل التواصلي، منها ما يرتبط بجانبه اللغوي، ومنها ما يتجاوزه؛ حيث رأى هابرماس أن على كل مشارك

---

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق/ محمد علي النجار: ١/ ٣٣، دار الكتب المصرية، القاهرة مصر، الطبعة الثانية، سنة: ١٩٥٢م.

(٢) مستقبل الطبيعة الإنسانية، نحو نسالة ليبرالية، ترجمة/ جورج كتوره: ١٨، ١٩.

(٣) الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، هابرماس أنموذجا، محمد نور الدين أفاية: ٧٦، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط١، سنة: ١٩٩٨م.

(٤) مدرسة فرانكفورت، توم بوتومور، ترجمة/ سعد هجرس: ١٦٠، دار أويا، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية، سنة: ٢٠٠٤م.

(٥) أصبحت اللغة في تواصلية هابرماس هي الممثل الرئيس لتحاور العقول وتواصلها، فليست مجرد نظام لغوي يخضع لبعض القواعد، ولكنها بالأساس حوار وعلاقة بالآخر، يورجين هابرماس/ الأخلاق والتواصل، أبو النور حمدي أبو النور حسن: ١٤٦، التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، سنة: ٢٠١٢م.

(٦) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٢٢.

في التواصل: " أن يعلن اعترافه بمزاعم أو مطالب الصدق المتفق عليها"[١]، وأن الفعل التواصلي مبني على عقلانية تواصلية تحدد الشروط السليمة الكفيلة بـ"امتحان مصداقية ومعيارية أي خطاب يدعي لنفسه الصلاحية validite على ما عداه من خطابات أخرى منافسة، فهي تمدنا بالوسائل المسعفة لاختبار ادعاءات الصلاحية لأي من القضايا المعيارية المعروضة"[٢].

وأوردت عطيات أبو السعود شروط التواصليين بشيء من التفصيل، وفحوى ما أوردته منها[٣]:

١- أن تكون التفاعلية بين فردين أو أكثر.

٢- أن تتم التفاعلية بواسطة اللغة.

٣- أن تهدف التفاعلية إلى الوصول إلى اتفاق.

٤- أن يكون كل ما يطرح في التفاعلية محل: نظر ونقد، (ديموقراطية الحوار).

٥- أن تخضع التفاعلية لمعايير مفهومة يمكن تبريرها.

٦- أن تتحرر التفاعلية من كل أشكال الضغط والقهر.

٧- أن تتيح التفاعلية فرصا متساوية لكل المتشاركين فيها.

٨- أن يعبر كل مشارك في التفاعلية عن مزاعم الصدق والقدرة على تبريرها.

وذكر الدكتور/ كمال بو منير أن مانفريد فرانك ذكر أن الأفعال اللغوية الهادفة لتحقيق التفاهم ثلاثة أصناف: تمثيلية، تعبيرية، تنظيمية، ثم لخص شروط-دعاوى الصلاحية في[٤]:

١- الصدق: صدق القضايا[٥].

٢- الجدية: جدية المتكلم[٦].

---

(١) الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود: ١٠٣.

(٢) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٢٠.

(٣) الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود: ١٠٣ : ١٠٥.

(٤) النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، د. كمال بومنير: ١١٩.

(٥) يوازيه حديثهم عن صدق الخبر وكذبه، كما في قول ابن وكيع معلقا على بيت للمتنبي: "هذا تجاوز للحد، وخروج عن الصدق"، المنصف في نقد الشعر، أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع، تحقيق/ د. محمد رضوان الداية: ١/ ٢٨٣، دار قتيبة، دمشق سوريا، ط١، سنة: ١٩٨٢م.

(٦) يوازيه حديثهم عن كراهية الخلابة والخديعة، والمراوغة في الكلام، كما سيأتي.

٣- الصحة: صحة المعايير المقترحة[١].

٤- الوضوح[٢].

ومن له اطلاع على مقولات البلاغيين العرب القدامى يجد هذه المصطلحات بعينها مستعملة وبمعان مقاربة لما هي عليه عند التواصليين في بعضها، ومطابقة تماما في بعضها الآخر.

ورغم كثرة الحديث عن شروط أو ادعاءات الصلاحية-الصحة، وتعدد الألفاظ التي تطلق على كل منها من باحث إلى آخر، فإنه يمكن حصر شتات تلك الشروط والمطالب الأساس المفترضة لفهم الأقوال والتعبيرات، في المطالب الأربعة التي: "تستلزمها أفعال الكلام: **قابلية التعبير اللغوي للفهم**[٣]، **وحقيقة مضمونه، أو صدق محتواه، ومصداقية مقاصد المعبر عنه أو إخلاصها**[٤]، و**المشروعية المعيارية للقول أو التعبير**[٥]، أي: المطالبة بأن يكون صحيحا، أو ملائما، بالنظر إلى إلى علاقته بمضمون قيمي أو معياري، يقر به المتكلم والسامع معا"[٦].

المبحث الثاني

شروط الصلاحية عند البلاغيين العرب القدامى

يلقي هذا المبحث الضوء على حضور الوعي التواصلي في مقولات البلاغيين العرب القدامى[٧]، بتلمس بعض جوانب شروط الصلاحية في تلك المقولات، ولكن لم يغلب عندهم الجانب الاجتماعي

---

(١) جاء المصطلح بلفظه عند العرب وشيء كثير من مفهومه لدى التواصليين، على ما سيأتي.

(٢) جاء مصطلح الوضوح بلفظه ومعناه من ذلك أن البلاغيين العرب كانوا يقدمون ما هو: "كلام واضح، ومعنى لائح"، المنصف لابن وكيع: ١/ ٢٨٧، وقال أبوهلال العسكري: "ومما يؤيد ما قلنا من أن البلاغة إنما هي: إيضاح المعنى وتحسين اللفظ، قول بعض الحكماء: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام"، الصناعتين:٢١.

(٣) قال محمد بن الحنفية: " البلاغة: قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة"، الصناعتين: ٢١.

(٤) من ذلك ما نقله الجاحظ عن عامر بن عبد قيس من قوله: "الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب"، البيان والتبيين: ١/ ٨٣، ٨٤.

(٥) من ذلك أن البلاغيين العرب كانوا يقدمون الكلام المتناسب الذي لا لحن فيه، قال ابن وكيع: "هذا أولا بيت لا لحن فيه وهو متناسب كله"، المنصف: ١/ ٢٩١.

(٦) الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود: ١٠٥.

(٧) درس بعض الباحثين العرب المعاصرين الجهود التواصلية العربية القديمة، وممن تناول الجهود التواصلية العربية في جانب الدرس النحوي: د. عز الدين البوشيخي، حيث وقف على إرهاصات مفهوم القدرة في الفكر =

الجانب اللغوي من التواصل، كما هو عند هابرماس ومن نحا نحوه، بل إنهم كانوا يعطون الجانب اللغوي حقه، دون أن يهملوا جوانب الفعل التواصلي الأخرى.

وكذلك فإن البلاغيين العرب القدامى جعلوا النصوص المكتوبة بمنزلة الكلام المنطوق بصورة مباشرة بين شركاء الفعل التواصلي، فقد ذكروا أن ما اشْتُرِط في التواصل اللفظي المباشر اشْتُرِط في التواصل الكتابي[١].

ولكنهم طلبا لمزيد من تحقق صلاحية الفعل التواصلي فضّلوا التواصل الكتابي على التواصل الشفهي المباشر؛ ذلك أن الكتابة أجدر أن تحض الذهن على تصحيح الكلام، كما جاء في كلام عبد الرحمن بن كيسان[٢].

وممن جمع مضمون بعض تلك الشروط – قارنا الداخلي منها بالخارجي – في نص واحد ابن قتيبة حيث قال: "ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن **يؤدب نفسه** قبل أن **يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه** قبل أن **يهذب ألفاظه**، ويصون مروءته عن **دناءة الغيبة**، وصناعته عن **شين الكذب**، ويجانب – قبل مجانبة **اللحن وخطل القول** – **شنيع الكلام ورفث المزاح**"[٣]، فإنه جمع في هذا الكلام بين بعض جوانب الفعل التواصلي اللغوية وما يجب أن يرافقها من جوانبه غير اللغوية.

وجمع الجاحظ ما يخص شروط الجانب الداخلي (اللغوي) من الفعل التواصلي فقال: "ومتى شاكل – أبقاك الله – ذلك اللفظ معناه، وكان لتلك الحال وفقا، ولذلك القدر لفقا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع، ...، ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيرا من جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حبب إلى

=

اللغوي العربي القديم، في الفصل الأول من كتابه: التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية: ١٣، وما بعدها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٢م.

(١) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون: ١/ ٨٩، ٩٠، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة مصر، الطبعة الثانية، سنة: ١٩٦٥م.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٨٠.

(٣) أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مراجعة/ د. درويش جويدي: ٢٠، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٢م.

النفوس"[١]، وهذا كله مأخوذ في تعريف البلاغة تواصليا بأنها: "كل ما تُبْلِغ به المعنى قلب السامع فتُمَكِّنه في نفسه لتَمَكُّنِه في نفسك، مع صورة مقبولة ومَعْرِض حسن"[٢].

وجمع عبد القاهر الشروط الخاصة باللفظ، مصرحا بمصطلحي: الاستعمال والتداول؛ فقال: "أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولونه في زمانهم، ولا يكون وحشيا غريبا، أو عاميا سخيفا، سُخفه بإزالته عن موضوع اللغة، وإخراجه عما فرضته من الحكم والصفة"[٣]، وكل هذا مراعى عند التواصليين الغربيين المعاصرين.

وكان البلاغيون العرب يكرهون في الفعل التواصلي جوانب مما كرهه التواصليون الغربيون المعاصرون، فالعرب: "وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون **السلاطة والهذر، والتكلف، والإسهاب، والإكثار**؛ لما في ذلك من التزيد والمباهاة، واتباع الهوى، والمنافسة في الغلو، وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة؛ لأن ذلك يدعو إلى السلاطة والسلاطة تدعو إلى البذاء، وكل مِرَاءٍ في الأرض فإنما هو من نتاج الفضول"[٤].

وبالنظر إلى أهم المعايير التي برزت في الدراسات البلاغية العربية القديمة بشكل عام نجدها تكاد تنحصر في بيان الجاحظ وتبيُّنِه المتضمن معيار الصدق والكذب، ومعيار المناسبة عند ابن سنان الخفاجي، ومعيار الموافقة والاتباع عند عبد القاهر الجرجاني، ونظرا لإمكان إدراج ما يتناوله معيار الموافقة والاتباع تحت ما يتناوله سابقاه؛ فقد اكتُفِيَ هنا بإيراد بعض ما في مقولات البلاغيين العرب القدامى حولهما مما يتعلق بشروط صلاحية الفعل التواصلي في المطلبين اللذين انقسم إليهما هذا المبحث، على النحو الآتي:

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٧، ٨.

(٢) الصناعتين: ١٩.

(٣) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ هـ رتير: ٦، ٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٩م.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ١٩١.

المطلب الأول

البيان والتَّبيُّن

ومعيار الصدق والكذب

يكاد بَيان الجاحظ وتبيُّنُه يعكسان جوانب تواصلية غربية معاصرة حينما يتحدث عن مستويي البيان الذي هو واجب المرسل، والتَّبَيُّن الذي هو واجب المتلقي، ومن في حكمه، وشروط كل منهما، على نحو جعل من كتابه البيان والتبيين[١] منهلا لأجيال من الدارسين في الحقول المعرفية ذات العلاقة، ورغم غلبة المقولات التي رواها في كتابه على محتوى الكتاب، فإن هذا مثل ميزة إضافية؛ حيث تضمنت تلك المرويات مقولات بلاغية مغرقة في القِدَم، تؤصل لما يسعى لغرسه من أفكار بلاغية في نفوس متلقيه.

وقد ارتكز البيان والتَّبيُّن ومعيار الصدق والكذب عند البلاغيين العرب القدماء في هذا المطلب على شرطين من شروط الفعل التواصلي عند الغربيين المعاصرين، الأول: (المعقولية والصحة)، والثاني: (الحقيقة والصدق)، وإليهما انقسم هذا المطلب في فرعيه، على النحو الآتي:

الفرع الأول

المعقولية-الصحة

إن ما عناه التواصليون بالمعقولية أعم مما عناه البلاغيون العرب القدامى بلفظ: (العقل)، وقد كانت الأبعاد التواصلية حاضرة في هذا الجانب، كما في نقل الجاحظ عن الحسن البصري أن **التودد** نصف العقل، وأن **إحسان طلب الحاجة** نصف العلم[٢]، ومثله ما ذكر من أن الكتاب والرسول والهدية دليل عقل صاحبهن[٣]، وكذلك فإن وضع الألفاظ مواضعها عندهم يمنح المتكلم والكلام صفة **المعقولية**، قال أبو هلال: "فهذا كلامُ عاقلٍ يضع الشيء موضعه، ويستعمله في إبَّانه"[٤].

(١) قال في أوائله: "وإنما مدار الأمر على البيان والتبيُّن"، البيان والتبيين: ١/ ١١.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٩٥.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ١٠١.

(٤) الصناعتين: ٧٦.

ووضع الألفاظ مواضعها؛ يحقق جانبين تواصليين ضروريين، هما: موافقة مجاري الاستعمال، وسهولة الفهم، قال ابن سنان الخفاجي: "إن أحد الأصول – في حسنه – وضع الألفاظ موضعها حقيقة، أو مجازا لا ينكره الاستعمال، ولا يبعد فهمه"(١)، وهو باب عظيم تناول ابن سنان تحته فنونا كثيرة من مباحث البيان والبديع والمعاني والعروض، وذكر أبو هلال العسكري أن المختار من الكلام "ما لم يخالف فيه وجه الاستعمال"(٢).

ويدخل تحت مفهوم المعقولية التواصلي ما ذكره قدماء البلاغيين العرب من شروط الصحة والاحتراز عما يوجب الطعن، ونحو ذلك، على ما سيأتي من نماذج من كلامهم فيما يلي:

الصحة:

جاء لفظ: (الصحة) في تعريف البلاغة، عند ابن رشيق، حيث قال: "وقيل: البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة"(٣)، ويَحمل مصطلح (الصحة) عند ابن سنان الخفاجي عدة جوانب؛ بحسب ما أورده ومثَّل له من أنواعها، فقد ذكر من الصحة ما يمكن أن نطلق عليه **المعقولية**، كما في حديثه عن الصحة في التقسيم(٤)؛ حيث بين بالأمثلة الصحيح والفاسد منها، وبنحوه قال أبو هلال: "ولا يكون الكلام بليغا مع ذلك حتى يَعْرَى من العيب"(٥)، ومما يدخل تحت هذا النوع من الصحة: تجنب الاستحالة والتناقض(٦)، ويندرج تحته أيضا منها: ألا يوضع الجائز موضع الممتنع(٧)، وهو ما ختم ابن رشيق به باب البلاغة، حيث قال: "ومدار هذا الباب كله على أن البلاغة وضع الكلام موضعه، من طول أو إيجاز، مع حسن العبارة"(٨). وعدَّ ابن سنان من الصحة: (صحة التشبيه)(١)،

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي: ١١١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨٢م.
(٢) الصناعتين: ١٦٧.
(٣) العمدة، لابن رشيق القيرواني، ضبط/ د. عفيف نايف حاطوم: ١/ ٢٠٥، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.
(٤) سر الفصاحة: ٢٣٥.
(٥) الصناعتين: ٥٣.
(٦) سر الفصاحة: ٢٣٨.
(٧) سر الفصاحة: ٢٤٥.
(٨) العمدة: ١/ ٢١٠.

واشترط **الواقعية** في هذا النوع، بأن يكون المشبه به واقعا مشاهدا غير مستنكر[٢]، ويقترب من هذا النوع ما أسموه: (صحة الأوصاف في الأغراض)[٣]، ويندرج تحته أيضا: (ما خالف العرف والعادة) بحسب قول أبي هلال: "ومن عيوب المعنى: مخالفة العرف، وذكر ما ليس في العادة"[٤].

ومما يتعلق بالصحة ما ذكروا من أن "من الصحة صحة المقابلة في المعاني، وهو: أن يضع مؤلف الكلام معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة، والأصل في هذه المناسبة"[٥].

ومما يتعلق بالصحة "صحة النسق والنظم، وهو: أن يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول، وغير منقطع عنه"[٦].

الوضوح–الفهم:

وضوح الكلام وتيسر فهمه مما يكسبه البلاغة، ويرفع مكانته عند البلاغيين العرب القدماء، قال الجاحظ: "وكلما كان اللسان أَبْيَنَ كان أحمد"[٧]، وذكر ابن سنان الخفاجي أن :"المحمود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة، ولم يكن خافيا مستغلقا"[٨]، وقال أبو هلال: "وينبغي أن يتجنب الكاتب جميع ما يكسب الكلام تعمية"[٩].

=

(١) سر الفصاحة: ٢٤٦.

(٢) سر الفصاحة: ٢٥٣.

(٣) سر الفصاحة: ٢٥٦.

(٤) الصناعتين: ١١٢.

(٥) سر الفصاحة: ٢٦٧.

(٦) سر الفصاحة: ٢٦٨.

(٧) البيان والتبيين: ١/ ١١.

(٨) سر الفصاحة: ٢٠٦.

(٩) الصناعتين: ١٧٠.

والوضوح شرط من شروط الفصاحة والبلاغة معا عند ابن سنان، حيث قال: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام واضحا ظاهرا جليا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه، وتأمل لفهمه، وسواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظوما أو منثورا"(١).

وقد استهجن أبو هلال العسكري ولوع بعضهم بالغموض ونسب ذلك إلى الجهل؛ فقال: "ولا خير فيما أُجيدَ لفظُه إذا سَخُف معناه، ولا غرابة في المعنى إلا إذا شَرُف لفظُه مع وضوح المغزى وظهور القصد، وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بِكَدٍ"(٢).

السلامة من الاختلال:

اشترط البلاغيون العرب القدامى أن يَسْلَمَ الكلام من الاختلال، والاختلال ههنا يُحمل في الأصل على جانب المعقولية، من ناحية أنهم يقصدون به عدم دخول الاختلال على مضمونه وما يحمله من قضايا، باعتبار أنه كان محط نظرهم في تلك المراحل المتقدمة، ويُحمل أيضا على الاستعمالات الخارجة عن الفصاحة، كما هو المفهوم من قول الجاحظ متحدثا عن الكلام بشقيه المعنوي واللفظي: "فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف؛ صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة"(٣).

التَّحَرُّز مما يوجب الطعن:

كان من شأن البلاغيين العرب القدامى الأمرُ بالتثبت والتبيُّن من ناحية، والتَّحَرُّز من زلل الرأي والكلام من ناحية ثانية، قال الجاحظ: "وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت، والتحرز من زلل الكلام، ومن

(١) سر الفصاحة: ٢٢٠.
(٢) الصناعتين: ٧٥.
(٣) البيان والتبيين: ١/ ٨٣.

زلل الرأي"[١]، والأمران مشروطان لدى التواصليين، حيث يلزمون أطراف التواصل بالتدليل على طروحاتهم من ناحية، والاحتراز من كل ما يفسد عملية التواصل من ناحية ثانية.

وألزم البلاغيون العرب المتكلم أن يحترز عن أن يورد في كلامه ما يفتح مجال الطعن عليه فيه، فعليه سد فراغاته وملء فجواته، وقد بين ابن سنان الخفاجي المراد بهذا الشرط في قوله: "وأما التحرز مما يوجب الطعن: فأن يأتي بكلام لو استمر عليه لكان فيه طعن، فيأتي [بما][٢] يتحرز به من ذلك الطعن"[٣]، وهم يعنون بهذا التحرز أن يكون المتكلم من الفطنة بحيث يسد كل الثغرات والتساؤلات التي يتوقع أن يثيرها كلامه في ذهن المتلقي، على النحو الذي نجده في الاعتراض بلفظ: (غير مفسدها)، في بيت طرفة[٤]:

فسقى بلادك، غير مفسدها صوب الغمام ومزنة تهمي

وهذا الشرط يتجاوز حدود الوعي اللغوي إلى الوعي التواصلي، حيث يضع المرسل في حسبانه ما يحدثه كلامه في المتلقي من آثار.

الفرع الثاني

الحقيقة–الصدق

قد يقترب من مفهوم الحقيقة عند هابرماس ما عبر عنه البلاغيون العرب القدماء بقولهم: "ويقولون: أصاب الهدف، إذا أصاب الحق بالجملة"[٥]، وقد يدخل أيضا في مفهومها لدى التواصليين مباحث رواها الجاحظ عن المتقدمين فيما يخص ضبط اللسان، واشتراط ألَّا يزيد الكلام عن مقدار ما علموه وعقلوه، كما في قول محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن بلاغة أحد أقاربه: "إني لأكره

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٩٧.

(٢) في نص الكتاب المطبوع جاء ههنا بلفظ: مما، ولعل ما أثبته أنسب، والله أعلم وأحكم.

(٣) سر الفصاحة: ٢٧٣.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، تقديم وشرح/ مهدي محمد ناصر الدين: ٧٩، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، سنة: ٢٠٠٢م.

(٥) البيان والتبيين: ١/ ١٤٧.

أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله"[١].

وجاءت المصداقية عند التواصليين بمعنى أعم من أن تنحصر في مفهوم الصدق والكذب، فهي تعني أنه: "يجب على المتكلم ألا يكون مقلا في حديثه فلا يفهم، ولا ثرثارا فيحشو ويطنب، بل محكم التعبير عن نواياه ومقاصده"[٢]، فهي تتعلق بدقة التعبير عن نواياه ومقاصده؛ فيترك الحشو والغث من الكلام ولا يطيل الكلام فيمل ولا يقصر به عن مستوى ما يريد إيصاله من معنى، ويدخل في هذا الإيجاز والاقتصاد.

أما الصدق عند هابرماس ومن نحا نحوه فأمر آخر غير متعلق بهذا الجانب؛ لارتباطه بجانب النوايا والإخلاص من ناحية، وبواقعية مضمونه وتَحَقُّقِه في العالم المعيش من ناحية ثانية، فقد اشترطوا "أن يُعبِّر كل مشارك في التواصل عن مزاعم الصدق، والقدرة على تبريرها؛ للمشاركة في عملية التفاهم المتبادل"[٣]، وكذلك فإن الصدق عندهم يعني: أن تكون "عبارات المتكلم صادقة وغير مزيفة"[٤]، فالجانبان مأخوذان تحت مصطلح الصدق لديهم، فيكون صدقا من ناحية المتكلم وجديته، وصدقا من ناحية المضمون التواصلي، وسيتم تناول نماذج من كلام البلاغيين العرب القدماء تقابل هذه الرؤى التواصلية الغربية المعاصرة حول شروط صلاحية الفعل التواصلي – بشيء من التفصيل – تحت العناوين الآتية:

الصدق والكذب:

دخل معيار الصدق والكذب في إطار الدرسين النقدي والبلاغي لدى البلاغيين العرب القدماء باكرا، واحتدم الخلاف بين أوائل النقاد والبلاغيين حول مقولة: أعذب الشعر أكذبه، وما تصورها عليه كل منهم[٥]، وخلافهم في تفسيرها نشأ عن اختلاف طرق وزوايا النظر إليها من ناحية وإلى

(١) البيان والتبيين: ١/ ٨٥.
(٢) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٣١.
(٣) الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود: ١٠٥.
(٤) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٣١.
(٥) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ هـ. رتير: ١٧٤.

النص الشعري من ناحية ثانية، لكنه خلاف يعكس جوانب أعمق في نظرتهم إلى اللغة ووظائفها وما يجب أن تكون عليه عملية التواصل اللغوي، وما يلزم من شروط صلاحية الفعل التواصلي بكل صوره: شعرا ونثرا، مشافهة وكتابة[١].

وجعل البلاغيون العرب الصدق قيمة أساسا في الكلام وصفةً تمنح البيان سحره، بحسب ما نقله ابن رشيق من كلام أبي عبيد القاسم بن سلام في شرح قوله صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرا)[٢]، حيث قال: "قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكأن المعنى – والله أعلم – أنه يبلغ من بيانه أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنه سحر السامعين بذلك"[٣].

وذكر أبو هلال توخي الصدق وتحري الحق في إيراد الأخبار في الشعر، فقال: "وإذا دعت الضرورة إلى سوق خبر واقتصاص كلام فتحتاج إلى أن تتوخى فيه **الصدق** وتتحرى **الحق**"[٤].

ونقل البلاغيون العرب أن: "الجاحظ: أنكر انحصار الخبر في الصدق والكذب، وأثبت الواسطة"[٥]، وقال الجاحظ متحدثا عن شروط المترجم: "وحتى يعرف ما يكون من الخبر صدقا أو كذبا، وما لا يجوز أن يسمى بصدق ولا كذب، وحتى يعرف اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أي معنى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المحال من الصحيح، وأي شيء تأويل المحال، وهل يسمى المحال كذبا، أم لا يجوز؟ وأي القولين أفحش: المحال أم الكذب؟ وفي أي الأحوال يكون المحال أفظع؟ والكذب أشنع"[٦].

---

(١) نظريات الشعر عند العرب، د. مصطفى الجوزو: ١٤٩، وما بعدها، دار الطليعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨١م.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٧/ ١٣٨، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة مصر، ط١، سنة:١٣١٢هـ، برقم: ٥٧٦٧.

(٣) العمدة: ١/ ٢٠٩.

(٤) الصناعتين: ١٦٥.

(٥) المطول، شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق/ د. عبد الحميد هنداوي: ١٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠١م.

(٦) الحيوان: ١/ ٧٧.

كراهة التغرير:

يلحق بكراهتهم إياه ما أورده الجاحظ – في البيان والتبيين – بعد بيان رأي أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام فيمن تعمد التغرير بالناس بكلام يتأوله قائله بما ينافي صدقه، حيث قال: "ومن قال للمستشير هذا القول فقد غَرَّهُ، وذلك مما لا يحل في دين، ولا يحسن في الحرية[١]، وهذا القول معصية لله، والمعصية لا تكون صدقا، وأدنى منازل هذا الخبر ألا يسمى صدقا، فأما التسمية له بالكذب فإن فيها كلاما يطول"[٢].

كراهة المبالغة:

مما ينافي الحقيقة–الصدق في عملية التواصل أن تشوب الكلام مبالغة في الطرح؛ ذكر ابن وكيع كراهية العلماء المبالغة المستحيلة، وأخرج المبالغة المستحيلة مخرج الكذب، فقال: "فإما إطلاق السيادة على الأطفال وقَوْد الجيوش فمحال واضح وكذب فاضح"[٣]، وقال ابن سنان الخفاجي: "وأما المبالغة في المعنى والغلو فإن الناس مختلفون في حمد الغلو وذمه، فمنهم من يختاره، ...، ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج إلى الإحالة، ويختار ما قارب الحقيقة ودانى الصحة، ...، والذي أذهب إليه المذهب الأول في حمد المبالغة والغلو"[٤].

كراهة الخديعة:

ذكر الجاحظ بعض ما يدخل تحت شروط الصلاحية–الصحة عند البلاغيين العرب القدماء مما التمس هابرماس – ومن نحا نحوه – تحققه في الفعل التواصلي: "ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المُوَاربة"[٥].

(١) يقصد أنه ينافي صفات الحر من الناس.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٣٣٨.
(٣) المنصف في نقد الشعر: ١/ ٢٥٢.
(٤) سر الفصاحة: ٢٧١، ٢٧٢.
(٥) البيان والتبيين: ٢/ ١٧.

ومما جاء في كراهتهم الخداع أنهم كانوا يفضلون الخرس على الخداع في عملية التواصل، كما في قول جرير: "الخَرَس خير من الخِلابة"[١].

وعدَّ بعضهم من الخديعة أن يذكر المتكلم مساوئ الشيء مرة، حتى ينصرف السامع عنه، ويذكر محاسنه مرة أخرى، حتى يميل قلب السامع إليه، وقد ناقش ابن رشيق صنيع مَن فعل هذا، ومرتبته عند البلاغيين، ثم قال: "والذي أراه أنا أن هذا النوع من البيان غير معيب بأنه نفاق؛ لأنه لم يجعل الباطل حقا على الحقيقة، ولا الحق باطلا، وإنما وصف محاسن شيء مرة، ثم وصف مساويه مرة أخرى"[٢].

كراهة البذاء:

فضَّل البلاغيون العرب أن يكون الشخص أبكم على أن يكون فاحشا بذيء اللسان، فقد نقل الجاحظ عن أبي عمرو الضرير أنه قال: "البكم خير من البذاء"[٣].

وقال ابن رشيق موضحا أن ذكر إساءة المسيء ليس من البذاء: "دخل أبو العيناء على المتوكل، فقال له: بلغني عنك بذاء، قال: إن يكن البذاء صفة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فقد زكى الله وذمَّ"[٤].

الإقناع:

جعل البلاغيون العرب الإقناع هدفا من أهداف التواصل، وبالغ بعضهم في تحديد المدى الإقناعي والحجاجي الذي ينبغي الوصول إليه، قال العتابي: "البلاغة: إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق"[٥]، ورفض بعضهم هذا التجاوز في الحد الإقناعي، قال ابن رشيق: رشيق: "ومن كتاب عبد الكريم قالوا: حسن البلاغة أن يصور الحق في صورة الباطل، والباطل في

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٦٩.
(٢) العمدة: ١/ ٢٠٨.
(٣) البيان والتبيين: ٢/ ٦٩.
(٤) العمدة: ١/ ٢٠٩.
(٥) البيان والتبيين: ١/ ٢٢٠.

صورة الحق، قال: ومنهم من يعيب ذلك المعنى، ويعده إسهابا، وآخر يعده نفاقا"[١]، فإظهار ما غمض من الحق مرتبة وسطى، وتصوير الباطل في صورة الحق مرتبة عليا، تخرج عن شروط الصلاحية–الصحة عند هابرماس، وهذا ونحوه مما عاب رواد النظرية النقدية على المجتمعات الليبرالية التي منحت الأفراد حرية زائفة، ووظفت القدرات الإعلامية في خداع المجتمعات وتزييف الواقع[٢].

المطلب الثاني

معيار المناسبة

الصلاحية المعيارية

تعني الصلاحية المعيارية عند التواصليين: "أن يكون استخدام العبارات والكلمات متطابقا، ولا يخرج عن السياق المتعارف عليه في لغة المجتمع الذي ينتمي إليه المتكلم"[٣]، وهذا مما نبه عليه الجاحظ حين اشترط على الكُتَّاب مراعاة ما اعتاده المتلقون في تلك الأزمنة من بسط الكلام ليتحقق الإفهام، واشترط في المتلقي أن يعلم الجهة التي صِيغَ الكِتَاب على وجهها ليتسنى له فهمه[٤].

والصلاحية المعيارية عند التواصليين "تندرج في علاقة اللغة بعالم القيم والحياة الاجتماعية وما يشوبها من معتقدات وأحكام"[٥]، وهذا المعيار يمكن أن ندرج تحته تَجوُّزا شرطين من شروط صلاحية صلاحية الفعل التواصلي عند هابرماس والتواصليين، هذان الشرطان وهما: المعيارية–السلامة والمصداقية–الدقة، سيشكلان ركني هذا المطلب، حيث سيتناولهما فرعاه اللذان انقسم إليهما.

---

(١) العمدة: ١/ ٢٠٨.

(٢) يظهر هذا جليا في نقدات الجيل الأول من رواد النظرية النقدية، حين انتقلوا إلى أمريكا فتكشفت لهم أقنعة الخداع الرأسمالي هناك وما تقوم به القوى المهيمنة من خداع المجتمعات وتزييف الحقائق وفرض رؤاها وضمان استمرارية سيطرتها وازدياد نفوذها، الإشكالية السياسية للحداثة، من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل، د. علي عبود المحمداوي: ٧٤، ٧٥.

(٣) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٣١.

(٤) الحيوان: ١/ ٨٩، ٩٠.

(٥) النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق: ١٣٢.

الفرع الأول

المعيارية–السلامة

يدخل تحت مفهوم شرط المعيارية–السلامة مجموعة من المباحث التي وردت عند البلاغيين العرب، ومنها:

الصواب والخطأ:

جاء مصطلح: (الصواب) لصيقا بعملية إنتاج الكلام عند البلاغيين العرب، كما في صحيفة بشر بن المعتمر، حيث إنه جعل تحقق صفة الشرف للمعنى مرتبطا بالصوابية وموافقة المقام، في قوله: "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"(١)، ونلاحظ أن حديث ابن سنان عن مراعاة المقام يشير إلى المناسبة(٢)، والواقعية على نحوٍ ما(٣)، ويقحم في هذه النقطة تحديدا ما أسماه: قانون السداد والصواب(٤)، وقد سبقه إلى التصريح به أبو هلال العسكري فقال: "وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا"(٥).

ومن تواصلية توظيف لفظ: (الصواب) في تعبيرهم عن البيان قول علي بن الحسين بن علي: "لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في صواب التبيين؛ لأعربوا عن كل ما تخلَّج في صدورهم، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم"(٦).

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٣٦.

(٢) حيث قال: "ومن الصحة صحة الأوصاف في الأغراض، وهو: أن يمدح الإنسان بما يليق به ولا ينفر عنه، ...، حتى يكون كل شيء موضوع في المكان الذي يليق به"، سر الفصاحة: ٢٥٦.

(٣) حيث قال: "فأما النثر فيجري على هذا المنهاج، ويحتاج فيه إلى معرفة المواضعات في الخطاب والاصطلاحات، فإن للكتب السلطانية من الطريقة ما لا يستعمل في الإخوانيات، وللتوقيعات من الأساليب ما لا يحسن في التقاليد، وهذا الباب – أعني المواضعة والاصطلاح في الخطاب – يتغير بحسب تغير الأزمنة والدول، فإن العادة القديمة قد هجرت ورفضت، واستجد الناس عادة بعد عادة"، سر الفصاحة: ٢٥٦.

(٤) حيث قال: "لكن أصول الأغراض في الأوصاف والمعاني مما لا تتبدل ولا تتغير، فليكن الائتمام بها واقعا، والاجتهاد في جريها على قانون السداد والصواب حاصلا"، سر الفصاحة: ٢٥٧.

(٥) الصناعتين: ٧٢.

(٦) البيان والتبيين: ١/ ٨١.

وجاء لفظ: (الصواب) و(معيار الإعراب) في قول العتّابي: "قَيِّمُ الكلام العقلُ، وزينته الصواب، وحليته الإعراب، ورائضه اللسان، وجسمه القريحة، وروحه المعاني"[١]، وجاء لفظ الصواب والخطأ في جواب إياس بن معاوية، قال الجاحظ: "قيل لإياس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام، قال: فتسمعون صوابا أم خطأ؟ قالوا: لا، بل صوابا، قال: فالزيادة من الخير خير، وليس كما قال؛ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه"[٢].

وجاء لفظ: (الخطأ والصواب) عرضا في كلام الجاحظ نفسه، في قوله: "فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل: الفصاحة واللكنَة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواء، وكله بيانا"[٣]، فهو ههنا يثبت أن مجرد تحقق الإفهام لا يعني تحقق البلاغة، فلا بد من تحقق الشروط المعتبرة، وهي في كلامه هذا أربعة: **الفصاحة والصواب والإبانة والإعراب**، ونقائضها عنده: اللكنة والخطأ والإغلاق واللحن.

ضبط النقل:

يشترط الجاحظ على المتكلم الدقة في نقل الحكايات والنوادر كما هي، وإن تضمنت لحنا، أو خلت عن إعراب؛ حيث قال: "ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سَرِيًّا؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها"[٤].

---

(١) العمدة:١/ ٢٠٨.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٩٩.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ١٦٢.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ١٤٥، ١٤٦.

الفرع الثاني

المصداقية–الدقة

سبقت الإشارة إلى مراد التواصليين بالمصداقية–الدقة، في بداية الحديث عن مفهوم مصطلح الصدق لدى التواصليين؛ في محاولة التفريق بين المصطلحين، حيث جاءت المصداقية عندهم صفة للكلام، وجاء الصدق صفة للمتكلم.

وكانت المصداقية–الدقة بمفهومها التواصلي معتبرة عند البلاغيين العرب القدامى، في المتكلم والسامع معا، فقد قال الحسن البصري حين سمع من أحدهم موعظة فلم تحدث بنفسه الأثر المرجو لمثلها: "يا هذا؛ إن بقلبك لشرا أو بقلبي"(١)، فإن انعدام المصداقية–الدقة يسلب التواصل أثره.

الاقتصاد:

فضَّل الجاحظ الاقتصاد والتوسط في الكلام، وأورد المصطلحين بلفظيهما، فقال: "وفي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانبة الوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه، ...، وليكن كلامك ما بين المقصِّر والغالي"(٢).

وجعل ابن سنان الإيجاز من شروط الفصاحة فقال: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة: الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام، حتى يعبَّر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس"(٣)، وقال الجاحظ أيضا: "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره"(٤)، وقال ابن سنان معرفا الإيجاز المحمود: "هو: إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ"(٥).

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٨٤.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٥٥.

(٣) سر الفصاحة: ٢٠٥.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٨٣.

(٥) سر الفصاحة: ٢١١.

ترك فضول الكلام:

ذكر المُفَضَّل الضَّبِّيُّ أن البلاغة: الإيجاز، وأن الإيجاز: "حذف الفضول، وتقريب البعيد"[١]، وذكر الجاحظ أن العرب: "يذكرون الكلام الموزون، ويمدحون به، ويفضلون إصابة المقادير، ويذمون الخروج عن التعديل، قال جعفر بن سليمان: ليس طِيْب الطعام بكثرة الإنفاق، وجودة التوابل، وإنما الشأن في إصابة القَدْر"[٢].

استيفاء جوانب المعنى:

لا يعني الأمر بترك الفضول التسليم بالإيجاز المُخِلِّ؛ فقد ألزم البلاغيون العرب المتكلم أن يستوفي كل جوانب المعنى التي تُسْهِم في صلاحية الفعل التواصلي وصولا إلى اكتمال العملية التواصلية ونجاحها، قال ابن سنان الخفاجي: "وأما كمال المعنى، فهو: أن تُستوفى الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل جودته"[٣].

صحة التفسير:

مما يتعلق بالدقة عندهم: (الدقة في التفسير)؛ بحيث يكون دقيقا في الدلالة على ما يفسره، بغير زيادة ولا نقصان، على ما ذكر ابن سنان الخفاجي من أن "من الصحة صحة التفسير، وهو أن يذكر مؤلف الكلام معنى يُحتاج إلى تفسيره، فيأتي به على الصحة من غير زيادة ولا نقص"[٤].

الاستدلال:

يدخل تحت الاستدلال في الدرس البلاغي العربي القديم عدة مباحث بلاغية، منها: (الاستدلال بالتمثيل)، الذي يدخل في جانب الدقة ملامسا ما ذهب إليه التواصليون من ضرورة: أن يدلل كل طرف من أطراف التواصل على طروحاته، على ما سبق ذكره، وجاء هذا المصطلح البلاغي في قول ابن سنان الخفاجي: "وأما **الاستدلال بالتمثيل:** فأن يزيد في الكلام معنى يدل على صحته، بذكر

(١) البيان والتبين: ١/ ٩٧.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٢٧.
(٣) سر الفصاحة: ٢٧١.
(٤) سر الفصاحة: ٢٧٠.

مثال له"[١]، ويلحق به ما ذكره ابن سنان أيضا من **(الاستدلال بذكر عِلَّة)** تؤيد المراد وتمنع نقيضه[٢]، كما في قوله سبحانه وتعالى: **{**لو كان فيهمآ ءالهة إلا الله لفسدتا، فسبحن الله رب العرش عما يصفون**}**[٣].

(١) سر الفصاحة: ٢٧٥.

(٢) سر الفصاحة: ٢٧٧.

(٣) سورة الأنبياء: ٢٢.

الخاتمة

بعد هذه الإطلالة على حضور شروط صلاحية الفعل التواصلي في مقولات البلاغيين العرب القدامى، بالمقارنة مع ما هي عليه في النظريات الغربية، نصل إلى خاتمة المطاف، بعرض أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

١- أن شروط صلاحية الفعل التواصلي لدى التواصليين الغربيين المعاصرين أوسع أفقا منها عند البلاغيين العرب القدامى، تبعا لمنطلقاتهم وأهدافهم.

٢- أن البلاغيين العرب القدامى لم يهملوا الجوانب التواصلية الأخرى قط كما في حديثهم عن: الصدق والمطابقة، وكراهتهم: الخداع والخلابة، ونهيهم عن: المبالغة، ونحو ذلك من جوانب التواصل الخارجية.

٣- أن المصطلحات التواصلية من السعة بحيث يمكن إدراج ما أورده البلاغيون العرب القدامى من شروط تحتها.

٤- أن الناظر إلى ما اشترطه قدماء البلاغيين العرب لتحقق بلاغة الكلام والمتكلم وما اشترطه التواصليون لنجاح الفعل التواصلي، يجد أن كلا منهما اشترط ما يراه أنسب لتحقيق هدفه التواصلي، وأن شروط الفريقين تلتقي في جوانب وتفترق في أخرى؛ فاختلاف الأهداف والمنهج والمنطلقات ألقى بظلاله على كل ما ترتب عليه؛ حيث تقف عملية تحقيق التفاهم والإجماع عند هابرماس والتواصليين على أعلى هرم أهدافهم التواصلية، بينما يقف الكشف عن الإعجاز، وتحقيق الرتبة الأعلى في البلاغة، والفهم والإفهام على قمة أهداف البلاغيين العرب القدماء، وبمقدار التقارب والاختلاف بين أهداف الفريقين تقاربت واختلفت شروطهم.

وختاما فأرجو أن أكون قد وفقت فيما قمت به منهجا وعرضا وتنظيما ومقارنة، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

١- أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مراجعة/ د. درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٢م.

٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ هـ رتير، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٩م.

٣- الإشكالية السياسية للحداثة، من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل، د. علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٥م.

٤- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، الطبعة السابعة، سنة: ١٩٩٨م.

٥- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صالح إسماعيل عبد الحق، دار التنوير، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٩٣م.

٦- التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية، د. عز الدين البوشيخي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٢م.

٧- التواصل: نظريات وتطبيقات، مجموعة مؤلفين، بإشراف/ محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، علي مولا، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

٨- الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، هابرماس أنموذجا، محمد نور الدين أفاية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط١، سنة: ١٩٩٨م.

٩- الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود، منشأة المعارف جلال حزى وشركاه، الاسكندرية مصر، ط١، سنة: ٢٠٠٢م.

١٠- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة مصر، الطبعة الثانية، سنة: ١٩٦٥م.

١١- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق/ محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة مصر، الطبعة الثانية، سنة: ١٩٥٢م.

١٢- ديوان طرفة بن العبد، تقديم وشرح/ مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، سنة: ٢٠٠٢م.

١٣- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨٢م.

١٤- السيميولوجيا والتواصل، إيريك بويسنس، ترجمة/ جواد بنيس، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، الطبعة الثانية، سنة: ٢٠١٧م.

١٥- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة مصر، ط١، سنة:١٣١٢هـ.

١٦- الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق/ د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨١م.

١٧- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة/ د. يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد العراق، ط١، سنة: ١٩٨٥م.

١٨- العلم والتقنية كإيديولوجيا، يورغن هابرماس، ترجمة/ حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.

١٩- العمدة، لابن رشيق القيرواني، ضبط/ د. عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.

٢٠- الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٥م.

٢١- القصدية، بحث في فلسفة العقل، جون سيرل، ترجمة/ أحمد الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط١، سنة: ٢٠٠٩م.

٢٢- قضايا الشعرية، رومان ياكوبسون، ترجمة/ محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨٨م.

٢٣- اللسانيات وتحليل النصوص، د. رابح بوحوش، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٧م.

٢٤- اللسانيات ونظرية التواصل – رومان ياكوبسون نموذجا، د. عبد القادر الغزالي، دار الحوار، اللاذقية سوريا، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.

٢٥- اللغة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللغة، تأليف مشترك، إعداد وتقديم/ مخلوف سيد أحمد، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

٢٦- مدرسة فرانكفورت، توم بوتومور، ترجمة/ سعد هجرس، دار أويا، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية، سنة: ٢٠٠٤م.

٢٧- مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، يورغين هابرماس، ترجمة/ د. جورج كتُّوره، المكتبة الشرقية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٦م

٢٨- المطول، شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق/ د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠١م.

٢٩- المعرفة والمصلحة، يورغن هابرماس، ترجمة/ حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠١م.

٣٠- المنصف في نقد الشعر، أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع، تحقيق/ د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق سوريا، ط١، سنة: ١٩٨٢م.

٣١- نظريات الشعر عند العرب، د. مصطفى الجوزو، دار الطليعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨١م.

٣٢- النظرية النقدية التواصلية، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، حسن مصدق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠٠٥م.

٣٣- النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، د. كمال بو منير، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

٣٤- النظرية النقدية مدرسة فرانكفورت، آلن هاو، ترجمة/ ثائر ديب، المركز القومي للترجمة، القاهرة مصر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٠م.

٣٥- يورجن هابرماس، مقدمة قصيرة جدا، جيمس جوردن فينليسون، ترجمة/ أحمد محمد الروبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة مصر، الطبعة الأولى، سنة: ٢٠١٥م.

٣٦- يورجين هابرماس/ الأخلاق والتواصل، أبو النور حمدي أبو النور حسن، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط١، سنة: ٢٠١٢م.